المعتقدات الدينية وتأثيرها في تمثيل الفرد في الفن الفينيقي

بقلم حارث فؤاد البستاني
دكتور في علم الآثار

يصعب على البحّاثة ان يتعمق كثيراً في دراسته للديانة في المدن الفينيقية الواقعة شرقيّ المتوسط ، لفقدان معظم النصوص التي تتعلّق بهذا الموضوع . ولا شك في أنّ أسس هذه الديانة تعود الى الازمنة الغابرة . انما اذا رجعنا الى بعض النصوص التي اكتُشفت في رأس شمرا — اوغاريت يمكننا الأخذ بها لكونها قريبة ، نوعاً ما ، من النصوص الدينية الفينيقية .

اذا سلّمنا بان اوغاريت مدينة فينيقية خالصة ، فان تلك النصوص قد تعكس تماماً التفكير الديني عند الشعب الفينيقي باسره . اما اذا اخذنا باقوال بعض العلماء . واعتبرنا ان اوغاريت ليست فينيقية بكل عناصرها ، خاصةً فيما يتعلق بالميثولوجية والملاحم ، فعلينا ان نتحفظ بعض الشيء وألاّ نعمم الديانة الاوغاريتية على كل المدن الفينيقية[1] . مهما يكن من امر

(١) يطلق ميتشيل داوود لفظة « فينيقي » على الشعب الكنعاني الذي كان يمتد من الشاطئ السوري الى الشاطئ الفينيقي بعد السنة ١٢٠٠ ق. م. الا انه قد جاء في حاشيته الثالثة في الصفحة ١٤٣ من بحثه : *The Phoenician contribution to Biblical wisdom literature*, في كتاب *The role of the Phoenicians in the interaction of Mediterranean civilisation*. — ما ترجمته : « لقد اتيت بهذا التمييز الزمني للتسهيل على القارئ وليس لاني اعتقد ان الفينيقيين يختلفون عنصراً وثقافة عن الشعب الذي ولد الشعر والميثولوجية في اوغاريت ، واني اعارض سباتينو موسكاتي في انتقاداته لنميزي براكي الذي كثيراً ما يستعمل النصوص الاوغاريتية للتعبير عن الادب الفينيقي » .

فان موقع اوغاريت الجغرافي وعلاقاتها الوثيقة بالمدن الفينيقية . ولغتها ؛ وايجديتها ؛ تدفعنا الى ان نرجع الى النصوص التي اكتُشفت فيها كلما شئنا البحث حول هذا الموضوع .

لقد اجمع العلماء على ان جبيل وصيدون وصور هي اقدم المدن الفينيقية التي عمّرت على الشاطئ الشرقي للمتوسط ؛ وذلك قبل ان توجد اوغاريت . ولا شك ان الفينيقيين الذين امّوا اوغاريت قد جاؤوا من مدن اقدم منها ؛ وحملوا معهم تقاليدهم ؛ واعرافهم ؛ وآلهتهم ، وقد يدلّ كل ذلك على أننا اذا اردنا ان ندرس الديانة الفينيقية بشكل عامّ ؛ وان نستنبط البيئة العنصرية والاجتماعية التي تولّت فيها ، يمكننا ان نرجع الى الديانة الاوغاريتية .

ان المعتقدات الاوغاريتية والفينيقية صعبة الدراسة ؛ معقّدة ؛ وليس من السهل ان نغور في اعماقها ؛ وان نكشف كل غوامضها ، وليس من شأننا في هذا البحث ؛ ان نجيب عن كل الاسئلة المطروحة حولها ، ولا ان ندرس بالتفصيل تاريخ الديانة الفينيقية بشكل عامّ . وكل ما نتوخّاه هو تبيان العروة الوثقى القائمة بين شخصيّة الفينيقيين ، ومعتقداتهم الدينية ؛ واظهار بعض المقوّمات التي تساعدنا في دراستنا حول تمثيل الفرد في الفن الفينيقي .

هذا ؛ ولن نتطرق في بحثنا الى جوهر الديانة الاوغاريتية ؛ ولن نحلل النصوص المتعلقة بها ؛ وذلك لانتقارنا الى المراجع والاصول . والحقائق التي سنتوصل اليها سوف تتعلق بالشعب الفينيقي ؛ وليس بالنصوص والميثولوجية .

لا شكّ في ان الشعب الفينيقي كان ؛ في اوائل عهده ؛ شعباً زراعياً على غرار الشعوب القديمة في بدء حضارتها . ولا شك ان اسرار الطبيعة كالماء ؛ والمطر ؛ والمناخ ؛ والشمس ؛ والجبال[1] ؛ والموت ؛ واختيار البذور .

(١) قال الاب لارجان (Largement) في مؤلفه : *Le rôle et la place du Liban dans la conception religieuse du Proche-Orient ancien*, Beyrouth, 1965, p.7 et 8 : اذا كان ازدهار البلاد الفينيقية يعود الى موقعها الجغرافي فان القدماء ، الذين كانوا متدينين بطبيعتهم ، قد عللوا هذا الازدهار بكون الجبل الفينيقي اعلى سلسلة في الغرب السامي . وكان الاله حدد (اوبعل) الذي سماه السومريون انليل يعتبر من اكبر آلهة المناطق الواقعة غربي الفرات . وقد اطلق عليه العبرانيون اسم يهوى ، بعد ان اصبح ايمانهم به ايماناً توحيدياً

وانبعاث النبات كانت ، بالنسبة له ، عناصر رأى فيها قوى خفيـة خارقة .

كل تلك العناصر المؤلّهة تسوسها سلطة عظيمة الا وهي سلطة الاله ايل « خالق الخلق[1] : مبدع الارض والانسان » . وقد امتدت سلطة ايل ايضاً الى البحر : هذا العنصر الذي كثيراً ما يثور على الانسان .

وبالرغم من ان ايل كان اله الفينيقيين الأعظم ، فكنت ترى لكل مكان : ولكل مدينة ، ولكل جبل الهها او آلهتها الخاصّة : يقدّمون لها اسمى مظاهر العبادة . ولم يمنع ذلك من ان يقوم بين الفينيقيين وآلهتها شيء من الالفة والتعاطف[2] : مما يبرّر عدم وجود الابنية الضخمة : والتماثيل الالهية الكبيرة . ذلك ان آلهة الفينيقي كانت تتمثّل على شكل الانسان .

لقد ابقى التجار والبحّارة الفينيقيون حتماً على شيء من عباداتهم ومعتقداتهم القديمة ، ولم يقتصر دورهم في نشر الحضارات على نقل العناصر الثقافية التي كانت رائجة في آسية الغربية . انما دمجوا تلك العناصر بمعتقداتهم الخاصة حتى تولدت الحضارة المعروفة في المنطقة الفينيقية . وقـد يبدو ذلك جلياً في التطور الذي أجروه على الكتابات التي كانت شائعة في البلاد المجاورة .

اذا تطلّعنا الى موجة التجريد والتبسيط التي تميزت بها الابجديتان

يختلف عن ايمان سائر شعوب الشرق الادنى . وكان الفينيقيون والكنعانيون يسمونه بعل او انسيد : وهو اله العواصف ، والزوابع ، والصواعق ، والبرق ، والغيوم والمطر ، والندى : مصدر كل خصوبة في البلاد الفينيقية والكنعانية ، وقد جعلت تلك الخصائص من حدد اخاً جبلياً ؛ ولم يتردد العبرانيون في ان يدعوا يهوى ايل – شداي وكان من الطبيعي ان يبدو جبل لبنان بقمته المكسوة بالثلوج وكأنه حرم هذا الاله . وقد بقي هذا الامتياز لجبل لبنان حتى بعد ان تطورت الديانة من زراعية الى فلكية . وبالنسبة الى فلسطين ، فلبنان هو جبل الشمال : شافون الذي يعلو بقمته نحو السماء ، حيث مقر سيد النجوم الذي يوجه الكواكب والسيارات والشمس والقمر ، ولهذا فلا يزال لبنان الجبل المقدس « على الاطلاق » .

(١) اندريه كاكو André Caquot, *La naissance des mondes*, Paris, 1959, ص ١٧٩

(٢) نصوص رأس شمرا في مؤلف G. R. Driver, *Canaanite Myths and Legends*, *Old Testament Studies*, 3, Edimburg, 1956.

الفينيقيتان ، فهل لنا ان نعتبر ان الفينيقيين دُفعوا الى تعميم هذا التجريد وهذا التبسيط على فنهم ، وعلى معتقداتهم من حيث لا يدرون ؟ اذا سلمنا بان لفظة « ايل » (الحيم) هي اسم علم[1] ، يمكننا الافتراض ان اسماء سائر الآلهة كانت صفات قبل ان تصبح اسماء علم . فكلمة ادوني مثلاً تعني « معلمي » وكلمة « بعل » تعني سيد . لقد قيل ان « عليان بعل » — « بعل زبول » هو اله : او سيّد : الينابيع والمياه الجوفيّة . كما انه سيد الارض ومخصبها . ثم ان القرابة بين كلمة « زبول » وكلمة « زبل » العربية تدفعنا الى اعتبار تينك الكلمتين بمعنى واحد : والى افتراض « اليان بعل — زبول يم » ، اله الانهر قد سمي كذلك لان الأنهر تغذي البحر . كما يغذي الزبل الزرع .

ولبعل ايضاً تسميات أخرى : كبعل شميم اي « رب السموات » وبعل شافون اي سيد الشمال كما هي ايضاً صفة الاله حُدد او حدد . وليس مستبعداً ان يكون بعل حامون قد اشرك بالاله ايل كما قد اشرك باله الشمس عند القرطاجيين الذين استمدوا عبادته من عبادة الشمس عند الفينيقيين : ذلك ان ايل عليون ، « العلي » ، قد وصف بعلام اي الأبدي : او الدهر الابدي . فان الشمس مسببة النهار والليل وميزان الدهر هي ايضاً ابدية .

وليس ملقرت الا بعل مدينة صور ويعني اسمه « ملك قرن » ملك المدينة . وعنات رفيقة بعل تشرك عشترت في السيادة على جبيل . واذا حلّلنا لفظة عشترت يمكننا ان نفترض انهنالك ايضاً تحويراً في المسميات وخطأ في اللفظ ربما يعود سببه الى تعدد اللهجات . فنجد هناك مثلاً كلمتي : « عشتار وإشتار » : او ليس اسم الالاهة اشرات يخضع ايضاً للتحليل نفسه وهي التي ولدت من « الماء المالح » . اما لفظة عشتروت فليست الا جمعاً للفظة عشترت .

بعدما سبق عن اسماء الآلهة يمكننا التساؤل عما اذا كان هذا التحوير في الاسماء ناجماً عن تقاليد : او خرافات سامية قديمة ، تقضي بالاّ يوثق

(١) اندريه كاكو André Caquot, *La naissance du monde*, Paris, 1959, p. 179

على تمثيل الاله او لفظ اسمه ، خوفاً من ان يُقضى عليه اذا ما سقط اسمه او تلف تمثاله . لهذا فقد تعددت اسماء الآلهة حتى اذا ما نُسي احدها حلّ الآخر مكانه وتجدر الاشارة الى ان الاساطير الدينية في الشرق الادني القديم ليست من الخرافات التي لا طائل تحتها سوى انها وليدة الخيال البدائي السابق للتفكير الفلسفي . انما العنصر الاسطوري تعبير عفوي للعاطفة الدينية بايجاد مُثُلٍ رفيعة تكون الصور الاساسية للمعتقدات المنبثقة طبعاً من اعماق النفس البشرية . وهذا العنصر الاسطوري يدخل كذلك في الطقوس الدينية ، اي في التعبير عن عاطفة العبادة بكل ما تستند اليه من اشارات محددة ومساعٍ حيّة ترمي الى استدرار عطف الآلهة المذكورة[1] .

وغالباً ما كان يُمثَّل ايل وجميع البعاليم باشخاص تحمل على رؤوسها خوذة يعلوها قرنا ثور او اكثر . ولا يخفى ان الثور يمثّل القوة والخصب . وكان يستعاض عنه بقرنيه الرامزين اليه[2] .

وحسبنا الاشارة الى ان ما سوف يلي في دراستنا هذه من شروحات لن يتضمن استنتاجات مقتضبة وسريعة تتناول جوهر الديانة الفينيقية . انما هي محاولات مجرّدة انسانية واجتماعية ، مرتكزة على الطابع الملحمي في النصوص الاوغاريتية . الا يمكننا ان نعتبر بعل في مقاومته للاله « مُوْت » . اي الموت ، وللاله « يم » : اي البحر . رمزاً لصراع الانسان مع قوى الطبيعة الجارفة ؟ انه في صراعه هذا مع « مُوْت » يحتاج الى مساعدة الالاهة « عنات » اي ينابيع المياه لينبعث من جديد . وحتى يومنا هذا يُفهم بكلمة « بعل » في الجبال اللبنانية كلّ ارض زراعية مرتفعة الموقع ، لا تصلها ينابيع الريّ ، ولا تُسقى الا بمياه المطر[3] . ان صراع الاله ضد الموت : بموازرة المياه المحيية قد يرمز الى امرين : اولاً الى عظمة الفصول

(١) ر. لارجمان : R. LARGEMENT, *Le rôle et la place du Liban dans la conception religieuse du Proche-Orient ancien*, Beyrouth, 1965, صفحة ١٠

(٢) اندريه بارو : André PARROT, *Le musée du Louvre et la Bible*, Delachaux et Niestlé, Neuchâtel-Paris, 1957.

(٣) ان كلمة بعل قد تعني ايضاً كل ما هو ارفع مادياً ، ومن هنا جاءت لفظة بعل المرأة اي سيدها . ولا نجد قط مؤنثاً لكلمة بعل ، الفهم الا لتسمية الالاهة « بعلت جبيل » .

وقوة اختمار الزرع التي هي اساس الحياة . وثانياً الى الانسان في صراعه العنيد ضد الموت .

ومن جهة اخرى فالى مَ يرمز صراع « بعل » ضد « يم » البحر ؟ ألا يسوغ لنا ان نعتبره صراع البحّار ضد البحر الغاشم ؟ فقد قيل : ان « يم يحارب بعل ليسترد ذهبه »[٤] . او ليس لنا ان نستنتج من كل ذلك ان البحارة الفينيقيين كانوا يعتبرون البحر الهائج عنصراً حريصاً على قوته وجبروته قد ساءه ان يرى الناس يغتصبونه لكي يصلوا الى الكنوز النائية ؟ قد لا يخطر على بالنا حينما نتحدث عن الملاحة في تلك الآونة ان نصف السفن المبحرة في اليمّ العظيم كانت لا تعود الى موانئها لأن البحر كان يتغلّب عليها فيدفنها في قعره ، او لان بحارتها قد استوطنوا ارضاً غريبة . ولا شك ان الفينيقيين كانوا يعتبرون هذه الظاهرة : وكأنها انتقامُ « يم » من الذين قد تحدّوه . ولذلك كان الفينيقيون يتمنّون ان ينتصر بعل على « يم » .

بعد مطالعتنا تلك النصوص ، يمكننا التماس القرابة الوثيقة التي تربط ما بين المعتقدات الدينية عند الشعوب الذين استوطنوا الهلال الخصيب ، والابتكار الرفيع الذي امتازت به المعتقدات الاوغاريتية . لم يكن للفينيقيين ان يصارعوا ضد البحر فحسب ، انما كان عليهم ان يحاربوا ايضاً الشعوب الآتية من البحر . لذلك فقد نرى ان مقدمة الاسطورة التي تروي صراع بعل ، (الذي يرمز الى الانسان) ، ضد « يم » لا تحتوي على وصف لخلق الكون والآلهة كما هي الحال بالنسبة لصراع مردوك ضد تيامات . فهي اذاً اوفر انسانيةً واقلّ بدائية . كما ان اقتتال الآلهة في النصوص الاوغاريتية قد ورد على شكل الحروب البشرية وهي مقدمة للصراع الدوري بين بعل وموت .

اننا نلاحظ ايضاً عند الفينيقيين جهداً في التوحيد بالغاء التواقل مما أدّى الى القضاء على وصف تنظيم الكون في النصوص الاوغاريتية ، ذلك لان الديانة الفينيقية كانت ترتكز على صراع الحياة والموت اكثر مما كان يهمّها خلق العالم . فهي اذاً اكثر انسانية بجوهرها .

(٤) نصوص رأس شمرا : G. R. Driver, *Canaanite Myths and Legends*, in *Old Testament Studies*, 3, Edimburg, 1956.

ان معظم الأساطير الفينيقية تدور حول هذا الصراع بين الحياة والموت، او حول جوانب هامة اخرى من الحياة الاجتماعية الفينيقية. ان الاساطير والملاحم الفينيقية تعكس اذاً هذا الاهتمام الزائد بالحياة التي تبدو وكأنها متربصة للفرار من ايديهم. وكان لهم في ذلك موقفان: موقف ديني يرتكز على الاله. وقد يتمثل «بكرت». وموقف انساني يتمثل «باقحات»[1].

لم يشعر الفينيقيون بضرورة تمثيل كل هذه الامور في فنهم على غرار الشعوب الاخرى؛ انما اكتفوا بذكرها في شعرهم وملاحمهم. وقد اقتصروا من وقت الى آخر، على تمثيل الآلهة مع بعض خصائصها.

كانت انسانية الفنان الفينيقي تدفع به الى ان يبقى حراً بتفكيره وعمله. ولعله لم يشعر بالهيمنة الدينية تتسلط عليه حتى تظهر من خلال آثاره الفنية. بل انه قد ذهب الى اكثر من ذلك وتعدّى المرحلة التي كان يسلّم بها الانسان نفسه الى الاله، او الى من يمثله على الارض. كما كانت الحال بالنسبة للمصريين مثلاً. ان تلك الديمقراطية التحررية، سياسية كانت ام دينية، قد جعلت الفينيقي والفنّانين منهم خاصة، يعملون لمصلحتهم ولمصلحة مجتمعهم.

ولم يخف الفينيقيون الاّ من الضغط الخارجي. ولكن هذا الضغط لم يؤثر قطّ على اعمالهم الفنية؛ ولم يرغمهم على تبديل مواضيعهم وافكارهم.

هذا، والجدير بالذكر ان روحانية الديانة الفينيقية قد اثرت كثيراً في كل من كان له علاقة بالفينيقيين[2]. يظن الاب لاورجان ان الاغريق قد

---

(١) راجع قصيدتي «كرت» و«دانيل».

(٢) كما يظهر ذلك من اقبال المبرانيين على الاخذ عن الفينيقيين. ولا يخفى ان عدداً كبيراً من علماء العصر يميلون اليوم الى اعتبار ان اسم الحكمة نفسه (حكموت) ليس سوى صيغة المؤنث المفرد بالفينيقية (سفر الامثال ١: ٢٠ – ٩: ١ – ١٤: ١ – المزامير ٤٨: ٤؛ سفر يشوع ٤: ١٢؛ سفر القضاة ٥: ٩) المنتهية بـ«وت»، وان النص الحكمي الرفيع الذي أدخل في سفر الامثال (الفصلان الثامن والتاسع) هو من اصل كنعاني فينيقي. يدل كل ذلك على ان دراسة النصوص الفينيقية تفيد جداً في حل المشاكل اللغوية والنحوية». عن ميشيل داود: *The role of the Phoenicians in the interction of Mediterranean civilisation*,

تأثروا كثيراً بالفينيقيين في هذا المضمار. وفي خلاصته لاسطورة ادونيس التي يعتبرها جدّ فينيقية في جوهرها، يقول: «اذا ما صحّ ذلك، تكون اسطورة الاله الذي يموت ويُبعث هبةً من الفينيقيين الى اليونان. ومهما يكن من امرٍ فان حيوية العبادة التي تميز بها هذا الاله قد تأثرت من دون شك بما جاء به الفينيقيون. وهذا من دون ريب عطاء نفيس: ان عبادته، التي قامت في كل المدن والموانئ المحيطة بالبحر المتوسط قد مهدت الطريق لانتشار الطقوس المتعلقة بالمسيح»[1]..

– «لم يبق من شك اليوم في ان الكتاب المقدس حفظ ـ قسماً مسخاً من الادب الفينيقي، ولا سيما ما انتمى الى الشعر الغنائي والحكمي. فلولا قوة تأثير الادب الكنعاني التقليدي لكنا فقدنا كثيراً من آثار اغنى البارز بالانشاد الشعري العبراني؛ كذلك كنا فقدنا كثيراً من خصائص العروض؛ والسرد الشعري الحافل بالصور؛ والوصف الحي للأحداث الطبيعية. وعلى هذا فقد اصبح العالم المتمدن باسره وريثاً للفن الادبي الفينيقي من خلال اسفار الكتاب المقدس». عن W. F. Albright, *The Bible and the ancient Near-East*, Garden City, 1961, صفحة ٢٥١

W. F. Albright, *From the Stone Age to Christianity*, Baltimore, 1940, صفحة ٢٨٣

(١) R. Largement, *Le rôle et la place du Liban dans la conception religieuse du Proche-Orient ancien*, Beyrouth, 1965, صفحة ٥١